«أخبار اليوم» تلامس معاناة مهاجرين أفارقة في المغرب

القمامة والصحراء والعنف.. في انتظار تحقق الحلم الأوروبي

«أخبار اليوم» تفتح علبة أسرار المهاجرين السريين الأفارقة جنوب الصحراء، وتلامس معاناتهم، وترصد واقع «مهاجر سري» بأرض غريبة يمشي الهوينى تجنبا للوقوع في قبضة العدالة، وتحاشيا لنظرات مجتمع لا يرحم أبناءه، فما بالك بغرباء جاؤوا من وراء الصحراء!

■ المهدي هنان ■

«أحس الآن بالاحتقار، بالغضب.. أكثر من إحساسي بالكره لمن كان السبب. أنا لم أصل إلى هذا البلد بهذه الحالة، ماذا عساي أن أفعل الآن.. وأنا عمليا، معاق؟!»، كلمات قالها يوسف مغالبا دموعه، وهو جالس على قنينة غاز صغيرة لعدم توفر كرسي بالبيت، أما نحن فظللنا واقفين طوال مدة الاستجواب. حكى لنا يوسف الثلاثيني المنحدر من «بوركينافاسو» كيف أصبح مشلولا بعد أن دخل المغرب وهو بكامل قواه الجسدية. تردد في البدء، قبل أن يسمح لنا بعد ذلك بمحاورته والتقاط صورة له.

رائحة الموت

منزل يوسف مظلم، في حي التقدم الشعبي بالرباط، تعمه رائحة نتنة، استقرت عشرات الحشرات الطائرة على سقف البهو المتسخ، في مكان يضم في جنباته أربع غرف يسكنها مهاجرون أفارقة. قصة يوسف بدأت في العاشر من يونيو 2012، حينما كان يهم رفقة مجموعة من المهاجرين السريين باجتياز حاجز مليلية الحدودي، هناك «تعرضت للضرب بهراوات من حديد، عضتني الكلاب، أذابوا البلاستيك فوق ظهري!»، يقول يوسف ملوحا بيده اليسرى، في حين استقرت اليمنى فوق فخذه بدون حركة.

بعد أن كسرت عظام يوسف، تم حمله إلى المستشفى، وهناك «صدمت أكثر، أسبوع وأنا لم أتلق أي علاجات، وأحيانا يضعونني في ممر دون سرير حتى!»، يضيف يوسف. بعد الفحص بالأشعة، تبين أنه مصاب برضوض وكسور وإصابة في العنق. يقول: «سألوني: هل لديك عائلة؟ فقلت لا؛ وفهمت من ذلك أنهم يريدون المال».

بعد أن طرد من المستشفى، يقول يوسف إنه حُمل وألقي به في «زوج بغال»، الحدود البرية الفاصلة بين وجدة ومدينة مغنية الجزائرية. ظل يعاني في الصحراء غير قادر على الحركة، إلى أن وقف إلى جانبه بعض «الجنوب صحراويين»، ووجدوا له مسكنا بجامعة محمد الأول بالمدينة نفسها. يوسف مر من تجربة «غوروغو» كالآخرين، وهي الغابة المتاخمة لمدينة الناظور، حيث يجتمع مئات المهاجرين السريين الأفارقة من مختلف الجنسيات. ينتظم المهاجرون على شكل «غيتوهات» (Ghetto)، وحينما تحين الفرصة، يقومون بالهجوم على السياج الفاصل بين ابني نصار بإقليم الناظور ومدينة مليلية. «السلطات المغربية تقوم بتجاوزات عديدة في الناظور»، يقول يوسف بصوت حاد وكأنه يستحضر ما عاناه من ألم: «أنا سعيد لأنني مازلت على قيد الحياة، أريد العودة إلى بوركينافاسو، هذا هو مرادي في هذه الأثناء، لا أريد أي شيء آخر...»، يقول البوركينابي.

هيئات حقوقية على الخط

هيئات حقوقية على الخط

أفاد التقرير الإجمالي حول الزيارة الميدانية لمآوي المهاجرين غير النظاميين جنوب الصحراء، الذي أنجزه وفد عن كل من الشبكة الجهوية لهجرة العبور بوجدة، ومؤسسة شرق-غرب، والجمعية المغربية لحقوق الإنسان بتاريخ الخميس 19 يناير 2012؛ بأن «الهجرة غير النظامية للأفارقة جنوب الصحراء نحو مدينة وجدة تعرف تطورا عدديا خلال الفترة الأخيرة، وتم القيام بعمليات تمشيطية وتدخلات عنيفة خاصة في غابات الإقليم (غوروغو وغيرها) بحثا عن هؤلاء المهاجرين قصد ترهيبهم وتعنيفهم وترحيلهم، وتزداد الأمور حدة في متم شهر دجنبر وبداية شهر يناير. وقد أسفرت العمليات عن إلقاء القبض على البعض منهم، وترحيل البعض في ظروف أقل ما يمكن القول عنها إنها تنعدم فيها شروط المعاملة الإنسانية والكرامة وحقوق الإنسان».

يقول هشام الراشدي، الكاتب العام لمجموعة نبذ العنصرية والدفاع عن الأجانب والمهاجرين (كاديم)؛ إن جزءا كبيرا من المجتمع المغربي خليط من التلاقح التاريخي بين عناصر جاءت من جنوب الصحراء والسكان الأصليين، لكن الهجرة المعاصرة لهؤلاء الأفارقة باتجاه شمال إفريقيا «بدأت عمليا مع قيام مجموعة من بلدان الاتحاد الأوروبي بعقد اتفاقية «شينغن» القاضية بإلغاء عمليات المراقبة على الحدود بين البلدان الموقعة عليها، وذلك في أواخر الثمانينات».

حي «التقدم»

وصلنا إلى حي «التقدم» الكائن بالرباط، وهو حي شعبي بسيط، يتوفر على كثافة عالية من السكان، كما يتوفر على نسبة عالية من المهاجرين السريين الأفارقة الذين حكيت عنهم الكثير من الروايات: أكلو لحوم بشرية ولحوم القطط والكلاب، تجار مخدرات... والكثير من الروايات الأخرى، ستصبح في السنوات الأخيرة عملة متداولة، وصورة نمطية ملتصقة بالمخيال الجمعي

رحلة الشقاء من الصحراء إلى وجدة

المغربي. لفت انتباهنا برج مياه كبير؛ قبل أن ننصهر بين أزقة التقدم الضيقة، بحثا عن شهادات أناس مروا من تجربة غوروغو قبل أن يستقروا بالرباط.

«لومباصاد»

بعد دقائق قليلة من وصولنا إلى التقدم، وطئت أقدامنا سفارة المهاجرين السريين الأفارقة أو «لومباصاد» كما يطلق عليها الجميع، هنا يسكن الأفارقة جنوب الصحراء منذ زهاء الست سنوات، كما أنشؤوا جمعية أطلقوا عليها «ALECMA» يناضلون فيها دفاعا عن حقوقهم. منزل من ثلاثة طوابق، رديء البناء، يقع وسط زقاق ضيق غصت جنباته بشبان أقوياء البنية، جميعهم ذوو بشرة سوداء. سلالم المنزل متهرئة. طابق بعد آخر، وصلنا إلى سطح البناية التي تعد المعقل الخاص لهؤلاء المهاجرين.

هنا تناقش كل صغيرة وكبيرة حول أحوالهم. عشرون شخصا يتوزعون على مساحة السطح الضيقة، منهم من يهيئ الطعام، ومنهم من اندمج في حديث جانبي؛ كما صادفنا وجود صحافية اسمها «حسناء» كانت تعد تقريرا حول حقوق المهاجرين الأفارقة. غرفة تشبه خما كبيرا للدجاج، مساحتها حوالي أربعة أمتار طولا وثلاثة عرضا، مسقفة بالزنك والبلاستيك. بالغرفة حبال ينشر بها الغسيل، وفي أحد الأركان استقرت طاولة خشبية قديمة تضم أواني متسخة وقنينة ماء من الحجم الكبير. يسار الطاولة وضعت قنينة غاز يتم طهي الطعام عليها، كما غصت الأرضية بأعقاب السجائر ولفافات الحشيش. جلسنا على صناديق سمك خشبية،

مواطنون أفارقة يضطرون إلى العيش على القمامة في انتظار بارقة أمل تحملهم إلى الفردوس الموعود

حول طاولة متقادمة علوها حوالي 25 سنتمترا.

«صامويل» (اسم مستعار) مهاجر سري من «غينيا كوناكري»، يمتاز بقامة طويلة، شعر قصير وعينين خادتين؛ مثقف ويكتب نصوصا بلغة موليير، يقول إن «أطباء بلا حدود لها فضل كبير على المهاجرين السريين الأفارقة جنوب الصحراء، فبفضلها يتلقى بعض المهاجرين المصابين بين حدود المغرب والجزائر العلاجات اللازمة...».

أما «جيندال»، الملقب وسط أصدقائه بـ«شيميتا»، ثلاثيني يضع طاقية سوداء لا تفارق رأسه، قوي البنية وجسمه مائل إلى البدانة؛ يقول: «دخلت إلى المغرب في 26 أكتوبر 2011. هناك أناس ينقلوننا يعرفون الطريق جيدا»، ثم يواصل: «كنت مجبرا على البقاء في وجدة لأسبوعين، ثم تنقلت رفقة بعض المهاجرين بالقطار، يمسكنا المراقب أحيانا، وننزل في المحطة الموالية وهكذا إلى أن وصلنا إلى الناظور».

يشدد شيميتا على أنه بالناظور تضطر أحيانا إلى البقاء مدة شهرين بدون استحمام، «هناك أناس يأكلون من القمامة...»، يردف بنبرة خافتة. بقي «جيندال» في غابة «غوروغو» قرب الناظور، مدة أسبوعين، وكان رفقة حوالي 600 مهاجر سري من مختلف الجنسيات، كل جنسية تسكن «غيتوها» معينا. حاول شيميتا التسلل إلى إسبانيا عبر «الزودياك» ثماني مرات، لكنه فشل فيها جميعا، وبعد أن اعتقل من قبل الشرطة في مدينة الناظور تم ترحيله إلى «زوج بغال»، لكنه عاد مرة أخرى بواسطة القطار ليصل إلى الرباط في 19 دجنبر 2011. «كنت أحصل في الرباط على عمل مؤقت لمدة يومين إلى أسبوعين، كما كنا نتسول في أحايين كثيرة، خصوصا أيام الجمعة»، يقول باستياء.

ينتقل المهاجرون السريون في الفصول الباردة إلى الميتروبولات الكبرى، كالدار البيضاء والرباط، يمتهنون عدة مهن مؤقتة، ليعودوا إلى العمل على تحقيق حلمهم الأبدي مع انقشاع موجة البرد.

منبوذون ومضطهدون

بعد أن يهرب المهاجرون السريون من «جحيم غوروغو» يتوزعون على المدن المغربية المختلفة، يشتغلون في مهن متعددة، كل ومجال اختصاصه؛ منهم من يشتغل في بيع مواد تجميلية إفريقية الصنع، منهم من يشتغل في التجارة، ومنهم من يجعل ترميم الأحذية مهنة له... يقول «شال» الكاميروني الثلاثيني ذو البنية الرياضية، حول سؤال عن الخلافات التي قد تحدث بين المهاجرين السريين نظرا لتباين دولهم، ولغاتهم أحيانا: «إننا كلنا إخوة ولا وجود لخلافات بيننا، لدينا جميعا هدف واحد، وكلنا متحدون من أجل ذلك». شال فنان يرسم ويقوم بأنشطة فنية عدة، وهو لا يرى أي مستقبل بعيدا عن القارة العجوز: «أنا فنان أقوم بالرسم، لدي عائلة، ولكني لا يمكن أن أقطن بالمغرب كما لا يمكنني العودة إلى الكاميرون.. لدي دائما حلم واحد هو الهجرة إلى أوروبا!»، يقول شال ملوحا بقبضته.

وقفنا على رصيف بحي التقدم ننتظر قدوم أحد أفراد جمعية «أليكما»، ونتجاذب أطراف الحديث، وفجأة صرخ أحد الباعة المتجولين في وجه بعض المهاجرين الأفارقة ممن كانوا رفقتنا: «وراه هضرنا معاكوم أبنادم، حيدوا من قدامي خليونا نترزقو الله..». عقبت الصحافية حسناء بلغة فرنسية أنيقة: «لو كان هؤلاء مغاربة، هل كانت ردة فعل الرجل ستكون بهذه الحدة؟!»، قبل أن تضيف بدارجة مكسرة: «سي حشومة».

يقول شال، الذي يقيم بالمغرب منذ أزيد من عام: «لماذا لا نستطيع العيش بسلام وراحة هنا، مادام هناك مغاربة يعيشون في الكاميرون بسلام؟!»، مردفا بنبرة حزينة: «ليس لدينا عمل هنا، ليس لدينا أي شيء.عمليا نحن مضطهدون!».

أسئلة لـ

نطالب بفتح تحقيق في انتهاك حقوق المهاجرين

هشام الراشدي *

■ حاوره - المهدي هنان ■

□ لأنتم كجمعية أسست سنة 2006 تعنى بالتصدي لكل أشكال الميز العنصري والدفاع عن حقوق المهاجرين بالمغرب، كيف تقيمون المقاربة الأمنية المغربية في ما يتعلق بهذا الملف؟؟

● **غير كافية تماما، فالمهاجرون الأفارقة جنوب الصحراء لا ينجحون في الوصول إلى أوروبا، لكنهم مازالوا يفدون إلى المغرب، كما أن المقاربة الأمنية المغربية تقتصر فقط على منع وصول المهاجرين إلى الضفة الأخرى؛ ومن مخلفات ذلك أن هذه الهجرة أضحت تستقر بالمغرب، وهذه الملاحظة كنا قد أعلناها قبل حوالي عشر سنوات.**

□ وردت في شهادات بعض المهاجرين انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان، أنتم كجمعية، هل وقفتم على أمثلة لبعض تلك الانتهاكات؟

● **نعم، لقد أصدرنا شهادات في التقارير الصادرة عن جمعيتنا، وأنا أتحفظ أولا على كلمة انتهاكات وأحبذ استعمال «عنف جسدي»، لأن كلمة انتهاكات لها محدداتها، والعنف القوي الذي يتعرض له المهاجرون يكون مصدره عادة أفراد من السلطات المغربية، وكذا من السلطات الإسبانية. وقد حصلنا على شهادات كثيرة، ليس فقط في «غوروغو» بل في الحدود المغربية-الجزائرية كذلك، زوج بغال مثلا وكل الشريط الحدودي. نحن نحتج على عدم فتح تحقيقات في الموضوع. نحن نعلم أن هناك مجموعة من التحقيقات قام بها المجلس الوطني لحقوق الإنسان لكن لم تنشر نتائجها؛ مثل التحقيقات المتعلقة بما وقع في الناظور سنة 2012 حينما انتشرت ادعاءات حول قيام باشا المدينة بتجنيد مجموعة من «العياشة» للقيام بالهجوم على المهاجرين.**

□ في نظركم، ما هي الإجراءات الواجب اتخاذها لتحسين ظروف هؤلاء المهاجرين؟

● **يجب تغيير المقاربة المتعامل بها في هذا الملف، قلت قبل قليل إن المقاربة الأمنية غير كافية. يجب نهج مقاربة مندمجة يدخل فيها ما هو اجتماعي وإنساني لتسوية وضعية المهاجرين الأفارقة، والاعتراف الرسمي بوجودهم بالمغرب، لتمكينهم من الحصول على عمل للخروج من بوتقة الفقر والعنف، كذلك، يجب إدماج هذا البعد في السياسات العمومية، فيجب أن تنجز، مثلا، وزارة الصحة ووزارة التنمية الاجتماعية برامج تأخذ المهاجرين الأفارقة بعين الاعتبار لأنهم، على كل حال، يعتبرون أقليات، ويجب إطلاق حوار وطني جاد ومسؤول حول هذا الملف.**

---

* الكاتب العام لمجموعة نبذ العنصرية ودعم والدفاع عن الأجانب والمهاجرين (كاديم)